العرب
الثلاثاء 2020/01/28
السنة 42 العدد 11600

مشاهير الكتاب الجزائريين لا يمثلون حقيقة المشهد الأدبي

فيصل الأحمر: أدب الخيال العلمي نادر عربيا لأنه أدب يكتبه الأقوياء

الخيال العلمي أدب غير رومانسي

تتّسم تجربة الروائي الجزائري فيصل الأحمر بالتنوع في الكتابة والغزارة في الإنتاج، وهو من الأوائل الذين كتبوا في أدب الخيال العلمي وأصدر أعمالا في هذا الشأن، وفي هذا اللقاء مع "العرب"، نتحدث إلى الكاتب حول هذه التجربة، متطرقين إلى عدد من القضايا الثقافية والإبداعية.

أبوبكر زمال
كاتب جزائري

الروائي فيصل الأحمر من مواليد الشرق الجزائري، دكتور في النقد المعاصر، يشغل حاليا وظيفة أستاذ محاضر، وقد تنوعت أعماله الأدبية بين الشعر والنقد والرواية وكذا الدراسات والترجمات، ولكن يبقى إسهامه الأهم في مجال أدب الخيال العلمي.

وقد طرق الروائي فيصل الأحمر باب تجربة نادرة عربيا وجزائريا من خلال كتابة رواية الخيال العلمي، وهو تقريبا أول من اتجه نحو هذا النوع من الأدب في الجزائر، مغامرة يقول عنها في هذا الحوار مع "العرب"، إنها "نمط كتابي خاص جدا. موقعه في الأدب العالمي يطرح علينا نحن العرب أسئلة كثيرة حول سبب ندرته عندنا".

خارطة أدبية

يرى الأحمر أن السبب الحقيقي في ندرة أدب الخيال العلمي عربيا يتمثل في الصلة الإشكالية التي تشكلت عبر الزمن بيننا وبين هذا الجنس الأدبي.

ويوضح قائلا "الغالب عندي هو أن السبب ثقافي وسياسي، فالخيال العلمي أدب افتراضي أي نظري، دوره الأساسي هندسة المستقبل ورسم معالم الزمن الآتي. وبهذا فهو أدب إنسان قوي متحكم في الواقع. ونحن نجد الأنظمة السياسية التي ظلت مهيمنة على العرب منذ الفترة الاستعمارية والمستمرة منذ تلك الفترة أنظمة تنظر إلى العربي كفرد مسلوب الإرادة، ولا تشجع مبدأ التفكير والتحليل الفلسفي للأشياء التي يمكنها رسم معالم أخرى للحياة، وهو مبدأ تحاربه هذه الأنظمة دينيا بخلفية الكفر والتجديف والزندقة العقلية. لهذا يتطور عندنا الأدب الرومانسي كثيرا، فهو أدب الإنسان المغلوب على أمره، مسلوب الإرادة".

الأدب الجزائري يعاني من سوء قراءة للنصوص، وهناك نوع من الدعاية الغائبة للكتاب الجدد

يرسم فيصل الأحمر لهذا النوع من الأدب في العالم العربي خارطة مركبة، حيث يعتقد أن هناك كمّا لا يستهان به من الأعمال التي يمكننا أن نستشف منها ملمحا معينا له. فالكثير من النصوص والدراسات وشهادات من دخلوا هذا الفضاء، وهي موثقة في كتاب له صدر عن دار فضاءات الأردنية سنة 2018 بعنوان "خرائط العوالم الممكنة"، دخلوه مشبعين بالولع والحماس والأفكار، وخلص إلى أن الكاتب العربي طوع جنون الخيال العلمي لمتطلبات الذوق العربي، والثقافة العربية، والبعد الجمالي المتماشي مع مخرجات الثقافة والتاريخ العربيّين الإسلاميين، وفي هذا تصرف حميد يدل على عبقرية معينة، كما يقول.

ويستدرك الروائي "إلا أن هذا الحماس يقل عندما ترى الكثير من الكتاب ما زالوا يواصلون الكتابة على كثير من الثيمات وكثير من القوالب المكررة، وهو برأيي كارثة ثقافية، ويدل على شيء واحد. إنه يدل على تكلس في الذوق، وترهل في القدرات العقلية. كما يدل على ميل المثقفين صوب دعم هندسة مجتمعية ماضوية بشكل ما، ودعم عقل ستاتيكي لا يشعر بجدوى القلق، وترسيخ أشكال بالية نعلم أنها بالية ونسمح لها مع ذلك بالاستمرار على حالها".

لا تخرج الكتابة عند الروائي فيصل الأحمر عن ثلاثة مواضيع يقول إنها "أحد ثلاثة أشياء متكررة دون ملل؛ هي توثيق لحيوات ووقائع أو مشاعر كان الكاتب شاهدا عليها يخشى عليها من الضياع على أديم الزمن، أو هي تأمّل فلسفي في الحياة يهدف إلى البت في المتشابهات والمتداخلات أو مراجعة بعض المسلمات، أو هي محاولة لوضع كلمات على أشياء حميمية جدا تستعصي على القول".

ويتابع "الكاتب الأول مدوّن اجتماعي والثاني مفكر والثالث شاعر يهدف إلى فتح النوافذ الداخلية وإفشاء الأسرار الجميلة التي تختفي داخل علب وجودنا المتناهي في السرية. وأنا أميل إلى الدورين الثاني والثالث، وأحد المشاكل الكبرى التي أعاني منها هي إيجاد منتصف الطريق بين التأمل الفلسفي وبين النزعة التسجيلية التي تنقل الأحداث والوقائع.. بحثا عن كتابة حية متفاعلة مع المحيط بحساسية عالية ولكنها كتابة فلسفية تدعونا للتفكير في الإنسان وفي الزمن. وأعتقد أنني في روايتَيّ الأخيرتين 'حالة حب' و'النوافذ الداخلية' تحديدا قد اهتديت إلى منتصف الطريق بين الهاجسين".

المشهد الجزائري

يعترف الروائي فيصل الأحمر أن المشهد الثقافي الجزائري ثري وغني ويقول إنه "شديد التنوع، وربما يكون أكثر حيوية مما هو عليه في كثير من البلدان العربية، والغالب عندي كتفسير لهذا الأمر هو الانتعاش السياسي الذي شهدته الجزائر -لقاء ضريبة باهظة جدا-، بدءا من عام الحراك العربي الأول 1988.. والثراء يأتي أولا من أن البلاد تعرف تقاليد كتابية تتوزع على لغتين واسعتي التداول: العربية ثم الفرنسية، تضاف إليهما الكتابة محدودة التداول -والتي لا تقل أهمية عن الأوليين من الناحية الثقافية- باللغة الأمازيغية".

ومع كل هذا يرى الأحمر أن الأدب الجزائري يعاني من "سوء قراءة للنصوص، نوع من الدعاية الغائبة للكتاب الجدد في ما عدا نصف دزينة من المشاهير الذين لم يعودوا يمثلون شيئا ولا أحد عدا أنفسهم. ورغم أن المشهد شديد الحركة، كثير الوعود، فإن الواقع الثقافي معتمل ولا ندري جيدا ماذا ولا كيف ستكون مخرجاته. علينا أن نمنح المسيرة الوقت قبل أن نعاين النتائج".

وبحسب رأيه كانت أهم الإضافات الأساسية التي ساهمت بها للثقافة الجزائرية في الثقافة العربية هي "موقع المرأة في المجتمع؛ بعيدا عن النموذج اللبناني الذي بدا دوما صعب التصدير إلى باقي البلدان العربية، والواقع أن النموذج الجزائري قد أتى أكله باكرا من خلال ظواهر كديمقراطية التعاطي السياسي، ونشر ثقافة التحزب، ودخول العامة في الاهتمام بالسياسة، وخاصة الإدراج الفعلي والكمي للمرأة في الميدانين السياسي والإداري، كما أن المرأة الجزائرية دخلت الميدان الفكري والثقافي بأعداد هائلة أيضا، وقد يكون الانتعاش الكبير للجوار بين اللغتين الفرنسية والعربية لدينا سببا في هذا الأمر. إذ قلّما نجد في بلاد عربية مناضلة نسائية عتيدة تتحول إلى المعارضة السياسية ثم تدخل حكومة البلد كوزيرة للثقافة، كما حدث في الجزائر.. والأمثلة الجزائرية على الدخول الفعلي للمرأة في النمذجة الثقافية وفي الهندسة المجتمعية كثيرة".

وعن أدوار النقد التي يمكن أن يلعبها في مواكبة مسارات الإبداع يقول فيصل الأحمر "إن مسارات النقد هي مسارات الإبداع أو مسارات الكتابة ومسارات هذه الأخيرة تتبع بالضرورة مسارات الحياة. فليس عبثا أن النقد وجد نفسه مولعا بالظواهر الاجتماعية منذ نصف قرن أو أكثر قليلا، ثم وجد نفسه يميل ميلا بنيويا من ثلاثين سنة.. فقد كان المجتمع العربي ونصوصه في مسيرة البحث عن تمثيلات جديدة للشيء الذي كان بصدد البحث عن مكان له على أديم الحياة غداة الحركات التحررية من الاستعمار: المجتمع. وقد استفرغت النصوص طاقة تأملية واسعة لأجل رسم ملامح مجتمع جديد في المرحلة الأولى، وقد وجد نفسه في المرحلة الموسومة بالبنيوية بصدد البحث عن فهم عميق للظواهر الحياتية/ النصية وهذا ما يتماشى تماما مع المزاج البنيوي".

وما يحدث، يقول الكاتب أن "النقد يجد نفسه عموما حبيس أحكام سابقة تتعامل مع نصوص اليوم وهي في جوهرها موجهة لقارئ يأتي غدا. النقد الذي كان في جوهره معرفة مشكّلة حول النصوص صار معرفة غير قادرة على أخذ المسافة الكافية لإصدار الأحكام حول النصوص، هذا هو سبب لجوء الجامعيين عندنا في الجزائر -وأشعر أن جميع بلدان العرب تعرف الظاهرة نفسها- إلى الدراسات التي ترتكز على نصوص قديمة مرسمة، متجنبا جديد الساحة الأدبية إلا في ما ندر من الحالات، فيما نلاحظ لجوء النقد الصحافي بحيويته الكبيرة وسرعة أدائه وتداوله الشعبي الواسع إلى عمل اللوبيات والجماعات الضاغطة، إلى الكتابة في إطار مقيت من الشللية واشتغال العصب وحتى الاصطفافات الأيديولوجية، مع استثناء القلة الجادة من نقاد الصحافة المعول عليهم، أما الأعداد الكبيرة فهي لأشباه نقاد بلا ثقافة ولا قدرة على الحكم؛ وهؤلاء يرمون بعمل التحرير الأدبي والثقافي النبيل إلى عمل الإخبار والتغطية وهو ما لا يعول عليه خارج دائرة الدعاية".

قطيعة في الحوار الثقافي بين المشرق والمغرب

حسونة المصباحي
كاتب تونسي

في الثمانينات من القرن الماضي، تابع القراء العرب على أعمدة الصحف والمجلات، خصوصا منها تلك التي تصدر في المهجر الأوروبي، جدلا مفيدا بين المثقفين المشارقة والمغاربة حول العديد من القضايا الهامة، سياسية وفكرية وثقافية ودينية، وغيرها.

وقد سمح ذلك الجدل الساخن الذي شارك فيه مفكرون مرموقون أمثال المغربي محمد عابد الجابري، والتونسي هشام جعيط، والسوري جورج طرابيشي، والفلسطيني فيصل دراج، واللبناني فيصل جلول، والمصري حسن حنفي، والجزائري محي الدين عميمور، في كشف فضائل المشارقة على المغاربة، والعكس بالعكس.

ومن وحي ذلك الجدل الذي استمر سنوات عدة، أصدر محمد عابد الجابري كتابا حمل عنوان "الحوار بين المغرب والمشرق"، ضمنه أهم المحاور والأفكار التي أبرزها الحوار المذكور...

ومعلوم أن العلاقة بين المشرق والمغرب نشأت بعد انتشار الإسلام في كل من ليبيا، وتونس، والجزائر، والمغرب لتصبح اللغة العربية لغة رسمية في هذه البلدان مُزيحة اللغة اللاتينية، ومُقلصة من حضور اللغة الأمازيغية أو البربرية.

وفي البداية، كان المغاربة يتوجهون إلى المشرق للدراسة، والاستفادة من علماء وأدباء دمشق، وبغداد، والبصرة، والكوفة وغيرها من حواضر الخلافة الإسلامية المشهورة بمدارسها في مختلف المجالات.

وانطلاقا من القرن العاشر، ومع نشوء مدارس وجامعات في مدن مثل تونس والقيروان وفاس، وأيضا في كبريات المدن الأندلسية، خفتت هجرة طلبة العلم والمعرفة إلى بلدان المشرق العربي، خصوصا بعد أن أحس أبناء بلدان المغرب بما يمكن أن نسميه بـ"الاكتفاء الذاتي" في المجال الثقافي والمعرفي.

وقد توطد الشعور بـ"الاكتفاء الذاتي" لديهم بعد أن برز بينهم شعراء، وكتاب ومفكرون وفلاسفة مثل ابن رشد، وابن طفيل، ابن باجة، وابن خلدون، ابن عربي، وغيرهم. مع ذلك ظل تطلع أبناء المغرب إلى المشرق قائم الذات. ولعل هذا ما يفسر هجرة ابن عربي إلى دمشق، وهجرة ابن خلدون إلى القاهرة. وقد نفسر هجرة الأول بالبحث عن فضاء روحي أكثر اتساعا وثراء. أما هجرة الثاني فأسبابها متعددة، لعل أهمها سعيه لمعرفة علل تدهور الحضارة العربية-الإسلامية، وضيقه بعلماء وشيوخ تونس الذين تآمروا ضده بعد أن أدركوا اتساع معارفه، وبعد نظره، وقوة حججه، ورجاحة فكره.

مع عصور الانحطاط، انقطعت العلاقة الثقافية والفكرية بين المشرق والمغرب، ولم تستعد عافيتها إلاّ في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، أي في تلك الفترة التي أشعّت فيها أفكار حركة النهضة التي أيقظت العرب من جمودهم الطويل، ممهدة لحوار مفيد بين المصلحين المشارقة والمغاربة، وموثقة الصلات بينهم لتبادل الأفكار والآراء حول مختلف القضايا التي تهم حاضرهم ومستقبلهم.

ورغم المسافات والأبعاد، ومصاعب الاتصالات، فإن أفكار حركة النهضة كانت تنتقل بسرعة بين مختلف البلدان المشرقية والمغربية ليتأثر بها كتاب وشعراء ومفكرون ومصلحون اجتماعيون وسياسيون كانوا يتصرفون في غالب الأحيان وكأنهم ليسوا معنيين فقط بمشاكل وقضايا بلدانهم، بل بكل ما يشغل العرب من المحيط إلى الخليج. لذا ليس من الصدفة في شيء أن يحظى المصري طه حسين بلقب "عميد الأدب العربي"، وأن يتجاوز ناقد حصيف مثل مارون عبود حدود بلاده لبنان، ليعنى بأدباء سوريين ومصريين وعراقيين وتونسيين. وليس من الغريب أن يشتهر الشابي في مصر بعد أن نشر قصائده في مجلة "أبولو" في حين كانت أبواب النشر والاعتراف موصدة أمامه في موطنه. وكان القراء يشعرون وهم يرددون قصيدة "أنشودة المطر" أن السياب لا يبكي أوجاع العراق وحده، بل أوجاع كل بلد عربي من صنعاء إلى مراكش. كما أن مفكرين من أمثال المغربي عبدالله العروي، والسوري الطيب التزيني، واللبناني كمال مرة وآخرون، انشغلوا في أعمالهم بمعالجة قضايا تتجاوز حدود بلدانهم لتشمل العالم العربي من المحيط إلى الخليج.

الحوار الثقافي بين المشارقة والمغاربة استمر حتى نهاية القرن العشرين، لكنه بدأ في التقلص منذ بداية الألفية الجديدة

ويمكن القول إن الحوار بين المشارقة والمغاربة ظل مستمرا حتى نهاية القرن العشرين، لكنه بدأ في التقلص والضمور منذ بداية الألفية الجديدة. ويعود ذلك إلى أسباب عدة منها أن كل بلد عربي سواء من المشرق أو المغرب أصبح يركز اهتماماته على مشاكله وقضاياه الخاصة به. لذا باتت نخبه منشغلة بذلك انشغالا يلهيها عن مشاكل وقضايا البلد العربي المجاور أو البعيد. كما أن مقولة "القاهرة تكتب، وبيروت تطبع، وبغداد تقرأ" أصبحت ملغاة بعد أن تعددت المراكز الثقافية والأدبية، وانخرطت بلدان المغرب، وبلدان الخليج في الحركة الثقافية والفكرية والفنية، موسعة الآفاق، ومبرزة أسماء لامعة في الرواية، وفي الشعر، وفي الفكر، وفي البحوث التاريخية والاجتماعية، وفي مجالات عديدة أخرى لتشعر النخب في البلدان المذكورة أنها باتت تحظى بـ"الاكتفاء الذاتي" على المستوى الإبداعي والفكري.

ومع التطور الهائل الذي تشهده وسائل الاتصال الحديثة، لم يعد المثقف العربي سواء من المشرق أم من المغرب مشدودا إلى مركز معين، بل هو يجد نفسه سابحا في محيط هائل الاتساع الذي هو العالم بأسره...

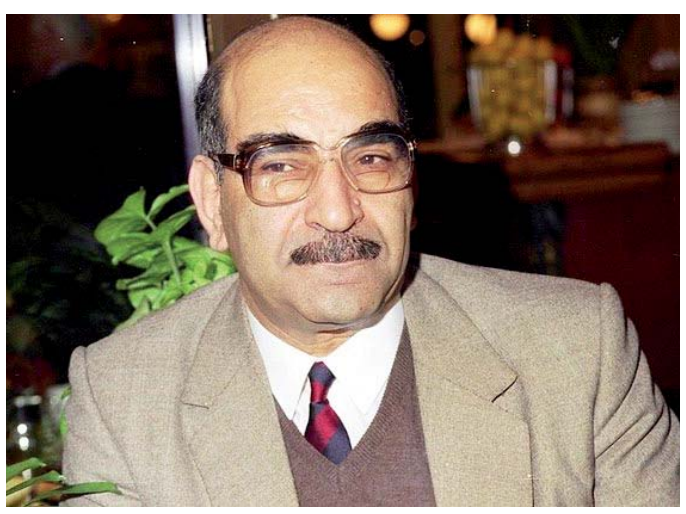

محمد عابد الجابري رمز للحوار الثقافي